تفجيرات لندن...من الأولى بالاعتذار؟!

15-7-2005

إن ساسة الغرب، ومنهم البريطانيون، يتهربون من الحقيقة ويتنكرون لها ولا يعترفون بأن السياسات التي صنعت صور الدمار والرعب والترويع في العراق وفلسطين وأفغانستان ورسمت مشاهد الإذلال والإهانة في غوانتنامو وأبو غريب، هي الباعث الأساس لما نراه اليوم من سلوك تفجيري جنوني...وليس في تاريخنا ولا في قيمنا ما نعتذر عنه لأحد،

بقلم خالد حسن

ليس هناك في أيامنا هذه ما يفصل بين الداخل والخارج، فما يحدث في العراق يؤثر حتما في دول الجوار كما في بريطانيات، وقد قالتها إحدى البريطانيا: "ما يحدث في العراق يؤثر بالفعل على حياتنا في الداخل"، فلا مجال الآن لفصل الخارج عن الداخل.

ما استغربته الأجهزة البريطانية هو كيف تحول الشبان الأربعة إلى "مفجرين"؟، وقد كتبت صحيفة الاندبندنت تقريرا بعنوان: "لماذا تحول الشبان الأربعة إلى الإرهاب"، وكيف أنهم "جاءوا من بيننا"، وحاولت فيه تتبع حياة منفذي تفجيرات لندن ونشأتهم وتعليمهم والأسر التي ترعرعوا في كنفها. واستغربت الصحيفة، كما الأجهزة الإستخبارية، تحول هؤلاء الشباب الفكري وحماسهم للتضحية بأرواحهم من أجل قتل الأبرياء رغم شهادات الأهل والجيران بأنهم كانوا أبعد ما يكونون عن التشدد الديني. وتقول الصحيفة إن المسجد القريب الذي كان يصلي فيه اثنان على الأقل من هؤلاء لم يشتهر مطلقا بالتشدد، وإنه ليس هناك أدلة على أنهم كانوا يترددون على مساجد اشتهرت بتشدد الأئمة فيها مثل مسجد فنزبري بارك شمال لندن.

لو أن هؤلاء تخرجوا أو لازموا أحد رؤوس الأمية الفكرية والسياسية والشرعية في بريطانيا أو غيرها، لقلنا إنهم صنيعة فكر متطرف، أما أنهم -واستنادا لمعلومات دقيقة- لم يعرف عنهم لا تشدد ولا تطرف، فالمسألة تبدو في نظر المحللين الغربيين غريبة، وهي كذلك فعلا لمن يتعامل مع مثل هذه القضايا تعاملا أعزلا تجريديا ماديا. فقد اتجه المحللون وخبراء الأمن وصناع القرار عن عمد، إلى تعليق ما يجري أحيانا من اعتداءات على يد مسلمين معزولين، إلى البحث عن جذورهم ونبتة التطرف فيهم، ويصنعون أوهاما يقنعون بها أنفسهم ويلزمون بها آخرون، ويعرضون عن حقائق يقرها منصفوه قبل غيرهم من الشعوب المستضعفة، ومنها أن سياساتهم هي التي صنعت بيئة للإرهاب وهيئت الأجواء للتفجير المضاد، ويسوقون هذا "التضليل" لشعوبهم ولبلادنا.

وأتعجب فيمن يتغنى بالعولمة، وأنها اختزلت المسافات واختصرت الأمكنة والأزمنة واخترقت الحدود وتلاشت أمامها الخصوصيات، ثم يحتار أمام تفجيرات هؤلاء الشباب، إن تأكد أمرهم. فكما أن عصر السرعة هذا قلب الحياة رأسا على عقب، فإنه أيضا ألقى بظلاله على عملية التأثير والانفعال، فأصبح المرء يتأثر بصورة أو مشهد بأسرع مما يتصور، بل لا تمهله سرعة التأثير حتى في التفكير، فيسبق تأثير الصورة النفسي الآني، تأمل العقل.

لقد جعلت تقنية المعلومات والاتصالات الحياة شبكية، وولى عهد الصيغة الهرمية، وما كان محتكرا من النخب أصبح متاحا لعموم الشعب، وأصبحت صور الدمار والخراب في العراق وأفغانستان وفلسطين ومخازي غوانتنامو وأبو غريب، تفرض نفسها على المشاهدين حتى ولو عزفوا عن رؤيتها، وتحولت الصورة إلى كتلة من التأثير النفسي والسلوكي والذهني، تفعل الأفاعيل في مستقبلها وتصير البعض إلى لغم ينفجر في وجه ضحايات صناع الكوارث والأزمات.

إن ساسة الغرب، ومنهم البريطانيين، يتهربون من الحقيقة ويتنكرون لها ولا يعترفون بأن السياسات التي صنعت صور الدمار والرعب والترويع في العراق وفلسطين وأفغانستان ورسمت مشاهد الإذلال والإهانة في غوانتنامو وأبو غريب، هي الباعث الأساس لما نراه اليوم من سلوك تفجيري جنوني.

لا نقول هذا هروبا من حقيقة أن التفجيرات جرم وترويع لا يقرها عاقل، ولا تخفيا أو تغطية على مدبريها ومنفذيها، وإنما كما كتب أحد الضمائر الحية في بريطانيا، وزير الخارجية السابق روبن كوك تعليقا في صحيفة "غارديان"،أن هجمات لندن تجربة مفجعة يجب أن تعطي للبريطانيين تصورا عن الرعب الذي أصبح جزءا من حياة العراقيين، و"الحقيقة التي لا مفر من الاعتراف بها هي أن الفوضى الحالية في العراق نتيجة مباشرة لقرارنا بغزوه رغم تحذيرات الهيئات الاستخباراتية". بل إن الجماعات العراقية التي شكلت المعارضة العراقية في الخارج قبل الاحتلال والتي لدى معظمها مليشيات عسكرية، أصبحت تميل إلى عسكرة الأحزاب محتمية بالجيش الأميركي ومتخذة من أسلوبه في التعامل مع العراقيين نموذجا، الأمر الذي أحرج الإدارة الأميركية، فقد تحدثت الصحف

والمنظمات الإنسانية عن سجون وتعذيب يوازي ما يفعله المحتلون في سجون أبو غريب وبوكا وغوانتانامو. وذكرت صحيفة "لوس انجلوس تايمز" نقلا عن الجنرال الأمريكي وليام براندنبورغ المسؤول عن مراكز الاحتجاز في العراق، أن عدد المعتقلين الذين تحتجزهم الولايات المتحدة في العراق سجل رقما قياسيا، حيث بلغ في يونيو هذا العام 10783 معتقلاً مقابل 5400 معتقل في العام الماضي، منتقدة إعلان الجيش الأميركي بناء سجن جديد يسع ألفي معتقل بالقرب من السليمانية في شمال العراق لاستيعاب الأعداد المتزايدة من المعتقلين العراقيين.

ولعل كثرة المعارضين لسياسة الإدارة الأميركية الحالية، خاصة بعد أن تبين فشلها وعجزها عن مواجهة الحقائق على أرض العراق، يكشف حجم التضليل الإعلامي والسياسي والنفسي الذي مارسته هذه الإدارة، وتحويل العراق إلى "بؤرة العنف والإرهاب الدولية خلال العقد المقبل، ولن تستطيع أي دولة أن تسيطر على هذا الإرهاب" على حد تعبيرهم، وما جرى في لندن من تفجيرات لا يعدو أن يكون شظايا متطايرة من هذه البيئة الرهيبة التي صنعها الساسة الأمريكان وتبعها فيها أقرانهم من البريطانيين.

نعم ربما يكون قد فعلها مسلمون، ولا نقرهم عليه، إذ ليس في مصلحة أحد إثارة أجواء الرعب والهلع، لكن ليس في تاريخنا ولا في قيمنا ما نعتذر عنه لأحد، لأنه "ليس فيها شيء من قيم الغرب الكثيرة، لا مذابح لليهود، ولا مذابح للنصارى، كالذي لقيه المسلمون في أوروبا، في الأندلس والبلقان، القيم الغربية منها ما يجب أن تعتذر منها البشرية"، وإنما "الغرب بحاجة شديدة أن يعتذر عن قيم له أضرت بالإنسانية, وأن يتوب ويعلن ذلك، لأن الغرب نفسه أصبح يستحي منها علنا، ويلتوي عليها عندما تذكر حادثة واحدة اعتذر الغرب منها وهي قتل اليهود، لأن هتلر خصمهم الذي فعلا مات ومات نظامه، ولأن أموال اليهود تبيع السياسيين الغربيين وتشتريهم، وتحدد مستقبلهم الرئاسي، ولأنهم يرعبون المسلمين ويرهبونهم، ويقومون للمتطرفين من النصارى بالخدمة القذرة، كالاغتيالات والإرهاب للمسلمين". نعم الغرب أولى بالاعتذار عن قيم مفزعة مروعة سادية، ولعل منها: الحرية والتقدم للرجل الأبيض، والإمبريالية، والاستعمار والعبودية وفرق تسد، وغزو الشعوب الضعيفة، ودعم الديكتاتوريات الموالية، ومواجهة الإسلام، ونشر الخلاعة، وتأييد الديموقراطية الشكلية، وتأييد الإرهاب الإسرائيلي، والسكوت عن سلاحها النووي، وتخريب الخراب في أفغانستان ونشر الدمار في العراق والإبداع في إنتاج المخازي والإهانات في غوانتنامو وأبو غريب!.